المحاضرة الثانية:

نشأة التصوف

يربط الكثير من الباحثين بين مفهومي التصوف والزهد لاشتراكهما في نفس النشأة واللون والطابع، ويرون أنّ التصوف هو امتداد لحركة الزهد (ظهر في القرن الأول والثاني للهجري)، لأن الأول ظهر بعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وهو ما يؤكده ابن الجوزي في قوله «كانت النسبة في رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام فيقال: مسلم ومؤمن ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلو عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقا تخلقوا بها...»، فلم يكن للتصوف من مكان أمام أهل الزهد والنساك والبكائيين الذين كان إيمانهم نقيا خالصا.

يعدّ الحسن البصريّ من أوائل الزهاد وأشهرهم في العصر الأول وأيضا مالك بن دينار وإبراهيم بن الأدهم، وقد ظهرت من بينهم طائفة تعرف بالبكائيين لفرط بكائهم تحصرا على ما اقترفوه من الذنوب ورجاء في نيل مرضاة الله وهذه السمات (التعبد، الذكر العناية بالناحية الأخلاقية...) المميزة لهذه الفئة هي من أسس الحركة الصوفية.

أمّا عن التصوف فأوّل ظهور له كان في البصرة، والأمر راجع إلى اختلاط الحضارات والثقافات الذي شهده العالم الإسلامي بعد الفتوحات الإسلامية والذي بدوره أدى إلى انغماس المسلمين في الترف والملذات فكان الرد على ذلك بالنقيض المتمثل في المغالاة في التعبد والزهد عن الملذات وانعزال الدنيا وترفها، وكان ذلك أوائل النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة مع مؤسسه الحقيقي ذو النون المصري (ت 245).

استطاع المتصوفة بعد انفصالهم عن الحياة العامة أن يصطنعوا فلسفتهم الخاصة في الأخلاق والسلوك والعبادة فتوحد أفقهم واتسعت معانيه باتساع كلماتهم الخاصة، وهنا نشأ أدبهم الخاص بشقيه شعرا ونثر.

نشأة أدب التصوف الجزائري

إنّ أوّل ما ظهر التصوف في البيئة المغاربية كان في القرن السادس للهجري إلى الثامن للهجري، على يد المتعلمين وفي البيئة الريفية، ومن أبرز العلماء الذين كانت لهم اليد في انتشار الفكر التصوفي أبي مدين شعيب وعبد الحق الإشبيلي وابن عربي والشاذلي والباديسي... وقد كان هؤلاء أهل علم متمسكين بالفطرة وسلامة الذوق التي يعرف بها أهل الريف، لينتشر بعدها هذا الفكر على عوام الناس في القرن التاسع للهجري.

أمّا بالنسبة للأدب الصوفي الجزائري –وكان الشعر المتصدر فيه– فقد كان مغيبا في بداياته لغياب التأليف فيه، وكان من النادر العثور على كتاب خاص بالشعر الصوفي لكاتب معين وإنّما كان يجمع أدب المتصوفة على اختلاف صنوفه وكتابه في كتاب جامع، أو يضم بعض شعره إلى كتب التراجم الرحلات أو كتب التاريخ والسير.

من أشهر الكتب التي جمعت أخبار المتصوفة الجزائريين وأدبهم كتاب التشوف لأبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي وهو عبارة عن تراجم تطرق فيه لأخبار الشيخ الصوفي الجزائري أبي مدين التلمساني، كذلك كتاب دلائل الخيرات للجزولي وإن لم يكن له علاقة بالشعر إلّا أنّه أدرج عديد النصوص الشعرية للمتصوفة الجزائريين.

ومن المصادر الخاصة بالتصوف يتصدر ديوان أبو مدين التلمساني القائمة يجمع فيه عديد القصائد بمختلف موضوعتها من حب إلاهي والخمرة الصوفية والتوكل....من ذلك:

إليك مددت الكفّ في كلّ شدّة ومنك وجدت اللّطف في كلّ نائب
وأنت ملاذي والأنام بمعـــزل وهل مستحيل في الرجاء كواجب
فحقق رجائي فيك يا ربي واكفني شمات عدوّ أو إساءة صاحب

ومن المؤلفات المشهورة أيضا كتب الأمير عبد القادر الجزائري نثرا وشعرا، ففي النثر كتاب المواقف، كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، وهذه الكتب تبرز ثقافة الشاعر الصوفية وتعمقه في الدين الإسلامي السنّي والصوفي، إلى جانب ديوانه الشعري الذي تعددت مواضيعه التي عرف بها الشعراء المتصوفة.

وهناك مصادر أخرى من أدب الرحلات (ككتاب أنس الفقير وعز الحقير لأبي العباس أحمد الخطيب)، التراجم (كتاب المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف لعبد الحق بن إسماعيل الباديسي، الدراية للغبريني)، وكتب جامعة (أنس الغريب وروض الأديب لأبي عصيدة البجائي).